الفصل الأول

جيل بلا رأس

١ - جيل بلا رأس

هل عرف تاريخ مصر الحديث جيلاً بلا مفكرين، بلا أدباء، بلا كتاب، بلا فنانين؟ إننى أنظر حولى، أبحث عن مفكرين وكتاب وأدباء وفنانين من أبناء جيلى فلا أجد. ولأن المفكرين والفنانين هم طليعة الأجيال، فإن جيلنا يبدو وكأنه أول جيل مصرى يتقدم فى الحياة بلا طليعة.

لكنه للحقيقة ليس جيلنا فقط.. بل إن ثلاثة أجيال متعاقبة تتراوح أعمارها بين الخامسة والعشرين والخامسة والأربعين وربما الخمسين لا تجد من يعبر عنها فى الصحافة ووسائل الإعلام وأجهزة الثقافة، ومجلسى الشعب والشورى، وأروقة الأحزاب، بل وفى المؤسسات العلمية فى الجامعة ومراكز البحث العلمى.

وقد أصبح الوضع غريبا، وأصبح من الصعب أن يستمر.

فى الأدب والفكر والصحافة كان يوسف إدريس ملء السمع والبصر وهو فى الثلاثينات من عمره، وكان أحمد بهاء الدين رئيسا لتحرير صباح الخير وهو فى السادسة والعشرين، وكان يوسف شاهين معروفا فى منتصف ثلاثيناته، وكتب نجيب محفوظ الثلاثية وهو فى الأربعين وقبلها بأربع سنوات كانت زقاق المدق قد صنعت شهرته ورأس محمد حسنين هيكل «الأهرام» وهو

فى الثانية والثلاثين.. و.. و.. إلى آخر القائمة المعروفة والتى يحفظها جيلى عن ظهر قلب. وتمتد إلى مجالات السياسة والفن والعلم.

لكل جيل طليعة، ولطليعة الجيل أدوار ووظائف.

طليعة الجيل التى تضم عناصره الواعية المثقفة، المتفتحة المتألقة، هى الأقدر على التعبير عن أبناء هذا الجيل بطموحاتهم وإحباطاتهم، بانتصاراتهم ومعاناتهم. وهى الأقدر على وضع «أجندة» جيلها. هى التى تستطيع من خلال حوار يديره الجيل مع نفسه وجدل يخوضه مع مجتمعه أن تعيد ترتيب الأولويات، وفرز الهموم، وتصنيف المشاكل. وهى التى تملك تعريف الأصدقاء وتحديد الأعداء، بفهمها لطبيعة عصرها وإدراكها لقيمة أمتها وتاريخها ومعرفتها بعناصر قوتها ونقاط ضعفها.

جيل بلا طليعة هو جيل بلا رأس.

طوال القرن العشرين كان للشباب مكانهم وكان للكبار مكانتهم. وكان وجودهم معا جنبا إلى جنب ضمانا للاستقرار فى الحاضر، وللاستمرار فى المستقبل.

فطليعة الجيل قادرة على أن تنقل للكبار إرادة الشباب ومشاعره، وعلى أن تنقل للشباب فكر الكبار وحكمتهم. فتتعمق القنوات بين الأجيال وتقوى الجسور، ويتحقق التماسك الاجتماعى، وتتفتح

شرايين الخبرة بالحيوية، كما تتدفق الحكمة فى القلوب الثائرة، فيتكامل الوعى والحماس.

يحتاج كل جيل فكرا أصيلا نابعا منه، بنفس القدر الذى يحتاج فيه فكرا يبلور تجارب الكبار وخبراتهم، ليعيد فهمها وصياغتها وتقديمها لنفسه ولأمته وللعالم. فتهافت الإنتاج الفكرى لجيل أو لأجيال يحيلها إلى أجيال مستهلكة للفكر ناقلة له، بدلا من أن تكون صانعة للفكر، منتجة له.

وإذا قنعنا بأن تصبح الأجيال الجديدة مستهلكة للفكر ناقلة للثقافة، فلماذا يبدو علينا كل هذا الاندهاش ونبدو كمن أخذتهم المفاجأة، حين يصبح شبابنا نهبا للأفكار الغريبة الشاذة من عبادة الشيطان إلى اعتناق فكر الخوارج؟

هناك من يسعدهم أن نبقى فى حالة عوز فكرى، وهم مستعدون دائما لتوفير الأفكار ونشر الثقافة سابقة التجهيز لمن ليس لديه فكر وثقافة.

وهناك وكلاء استيراد أفكار وقيم ومبادئ وثقافات. وهؤلاء يكسبون مرتين. مرة بوصفهم موزعين للفكر والثقافة، خاصة فى مجتمع يربح فيه المستوردون أكثر من المنتجين. وذلك حين يظهرون فى ثياب المفكرين وهيئة العلماء، ويكسبون مرة ثانية

حين يحصلون على عمولتهم من منتجى الفكر والثقافة، أصحاب المصلحة الأصلية فى نشر هذا الفكر، الذى يدعم مصالحهم ويؤكد سيادتهم. فيصبح لبعضهم السيادة على الأرض وعلى أصحابها وهو الأهم.

إن غياب الطليعة لا يعنى غياب الفكر والمبادئ، غير أن تبلور الطليعة يضع الرأس فوق الكتفين راسما صورة صحيحة للجيل، ومجسدا أفكاره وأيديولوجياته. وهو ما يسمح بمناقشتها وتطويرها. أما اختفاء الرأس فلا يعنى سوى أن الفكر والقيم مبعثرة فى جسد الجيل مختفية تحت السطح، ليست مطروحة للمناقشة وغير قابلة للجدل والتطوير.

الاهتمام بتدعيم ظهور مفكرين من الشباب ومن كل جيل ضمان لأن نظل قادرين على امتلاك رءوسنا وعلى تشغيلها، وإلا ستصبح عقولنا مفتوحة على مصراعيها لمن يملكون وسائل ملئها. من ناحية أخرى، حين يجد الشباب أنفسهم بالقرب من مواقع صناعة القرار فإنهم يدركون معطيات المواقف الراهنة واحتمالات المستقبل. الأهم أنهم يفهمون دواعى القرارات وضروراتها، ويتعرفون على المحظورات وخطورتها. ثم إنهم عندئذ يشاركون، بتقديم فكرهم والتعبير عن إرادتهم. فتنشأ الجسور بين صناع القرارات ومن يعيشون فى ظلها. وتضيق الفجوة بين الأجيال فينحسر سوء الفهم

وتختنق الهواجس والشكوك التى تشغل الفضاء المتروك بين أجيال تتحمل المسئولية وأجيال تنتظر.

حين لا تجد أجيال بأكملها من يمثلها فى الحياة العامة فإن الشعور بأنها مستبعدة يتسلل إلى وجدانها، وترى نفسها معزولة عن صناعة القرار، وغير ممثلة عند تقرير المستقبل. وحين يرى جيل أنه مستبعد ومعزول ومحتجز، فهل لنا أن ننتظر منه إنتماء؟ هل لنا أن ندعوه إلى تضحية؟

على أننى لا أستطيع أن أعفى جيلى من المسئولية. إننى أفهم دواعى حالة الانتظار التى يركن إليها جيلى والأجيال التى تسبقه والتى تليه. هذه أجيال برجماتية. تسأل عن عائد كل عمل. فإذا لم يكن وراء المشاركة سوى التضحية فما من سبب يدعو للعجلة وليس من منطق يدعو للإلحاح.

ثم إنها أجيال تربت على أيدى جيل الستينات.. وهو جيل تعرض لمحاولة تحطيم هائلة تحالفت عليه فيها قوى عديدة. وقد تركته التجربة عميق الحزن بالغ الإحباط.

وكل ما يستطيع أن ينقله من خبرة إلى أجيال تلته أن المشاركة الصادقة فى الحياة السياسية والمساهمة فى الشأن العام والمحاولة الطموحة لبناء هذا البلد عالية التكلفة ثقيلة التبعات. فأعداء هذا

الوطن كثيرون، وأصحاب المصلحة فى بقائه مئخنا وعاجزا منتشرون على رقعة واسعة فى الداخل والخارج، من الشرق إلى الغرب، مندسون، بعضهم بين الأشقاء والأصدقاء لا يقلون ضراوة عن الواقفين فى صفوف الأعداء. وهم قادرون على التجمع سويا والتحالف معا بسرعة مدهشة، وبقوة لا يستهان بها.

وقد أشفق الأباء مما لاقوه وخبروه. فكان أن حاولوا تجنيب أبنائهم مصاعب التجربة ومشاق المواجهة.

فجاءت الأجيال الجديدة - من بعد جيل كبير وبسبب ما لاقاه- عازفة عن المواجهة ومعرضة عن تقديم التضحيات الواجبة.

وهى بالإضافة إلى ذلك أجيال من «أبناء المدارس»، فهى نتاج ثورة التعليم التى قادتها ثورة يوليو، وهى أجيال حسنة التربية، والتربية عندنا هى الطاعة.

ومع أن جيل الستينات كان جيلا ثائرا على الكبار - كباره - بطرابيشهم وملوكهم وقيمهم، فقد حرص على أن يربى أبناءه على طاعة الكبار - الثوار سابقا - واحترام قيمهم ومبادئهم، والسير فى الطريق المرسوم بحرص، المحاط بالقلق، ومن ثم الانتظار حتى تسمح الظروف بالمشاركة أو بمنح الإذن فى التعبير عن أفكاره

ومشاعره، إن بقيت له أفكار ومشاعر مستقلة أصيلة، تلح بالتعبير وتضغط للظهور.

قد تكون أسباب الصمت مفهومة، إلا أن هذا كله لن يعفى تلك الأجيال من التحديات التى أصبحت تفرض نفسها على الجميع. وإذا كان لمصر تحديات تخصها بحكم الجغرافيا وبمقتضى التاريخ، فإن التقدم الحادث على أصعدة العلم والتكنولوجيا الذى أخذته القوى الرأسمالية الغالبة وصنعت منه «العولمة»، بكل ما لها وما عليها، يفرض تحديات تهدد باكتساح كل من يتجاهلها ويعجز عن فهمها والاستجابة لها.

إن مواجهة المستقبل هى القضية الأولى بالاهتمام، لذا فقد أصبحت مشاركة الشباب بالمبادرة والإقدام ضرورة ملحة وواجب لا يؤجل. فالاستسلام إلى حالة الانتظار لن ينهيه سوى مساهمة إيجابية فعالة تفرض نفسها، وأظن أننا إذا بقينا ننتظر دعوة للمشاركة، فإننا سوف نظل ننتظر، وقد يطول الانتظار.

ومشاعره، إن بقيت له أفكار ومشاعر مستقلة أصيلة، تلح بالتعبير وتضغط للظهور.

قد تكون أسباب الصمت مفهومة، إلا أن هذا كله لن يعفى تلك الأجيال من التحديات التى أصبحت تفرض نفسها على الجميع. وإذا كان لمصر تحديات تخصها بحكم الجغرافيا وبمقتضى التاريخ، فإن التقدم الحادث على أصعدة العلم والتكنولوجيا الذى أخذته القوى الرأسمالية الغالبة وصنعت منه «العولمة»، بكل ما لها وما عليها، يفرض تحديات تهدد باكتساح كل من يتجاهلها ويعجز عن فهمها والاستجابة لها.

إن مواجهة المستقبل هى القضية الأولى بالاهتمام، لذا فقد أصبحت مشاركة الشباب بالمبادرة والإقدام ضرورة ملحة وواجب لا يؤجل. فالاستسلام إلى حالة الانتظار لن ينهيه سوى مساهمة إيجابية فعالة تفرض نفسها، وأظن أننا إذا بقينا ننتظر دعوة للمشاركة، فإننا سوف نظل ننتظر، وقد يطول الانتظار.

الباحثين إلى إعادة تعريف الجيل بأنه أبناء الوطن الذين عايشوا مناخا تكنولوجيا واحدا.

أعتقد شخصيا أن الجيل يمكن تعريفه بالمرحلة التى ينطلق فيها من عقال الدراسة الأكاديمية ليلقى مجتمعه المفتوح. إذ إنها المرحلة التى يغادر فيها أسوار المدرسة ويتحرر من حرم الجامعة بعلاقاته الواضحة ومبادئه الصريحة المغرقة فى المثالية، ليقع فى إسار مؤسسات العمل بعلاقاتها المعقدة المتداخلة، فى ظل مناخ اجتماعى وسياق اقتصادى سياسى وأنماط ثقافية محددة، تصنع بتضافرها ملامح المجتمع فى هذه المرحلة التاريخية.

بتطبيق هذا التعريف، يكون جيل الستينات هو الجيل الذى تخرج فى الجامعة فى نهاية الخمسينات وطوال الستينات فى ظل الاشتراكية العربية وبناء القطاع العام وثورة التصنيع والتوسع الهائل فى التعليم العام والجامعى، ومحاولة تضييق الفجوة بين الطبقات بتوسيع شريحة الطبقة الوسطى من ناحية، وتقليص تركيز الثروة فى أيدى الأغنياء من ناحية أخرى، ومحاولة نشر ثقافة التقدم والاستقلال والوطنية ومعاداة الاستعمار، واعتناق هوية عربية فى إطار انتماء واسع إلى دوائر حضارية وجغرافية ثلاث.

أما جيل السبعينات فهو الجيل الذى عاصر تحولا إلى حد الانقلاب على القيم والمبادئ والسياسات والهويات التى عاش فى ظلها

واعتنقها جيل الستينات فى أغلبه. فهو جيل الانفتاح الذى انقلب على الاشتراكية حتى طورد معتنقوها وطردوا أو هاجروا، وعمل على هدم القطاع العام لصالح قطاع خاص استهلاكى. وأهدر قيمة التعليم إعلاءً لشأن العمل اليدوى من ناحية، ورأس المال من ناحية أخرى.

وهو الجيل الذى خاصم هويته العربية، فى ذات الوقت الذى ارتحلت الملايين من أبنائه لتنهل من عوائد ارتفاع أسعار النفط بعد حرب أكتوبر.

فى عصره عصفت رياح السلام بقوائم البيت العربى. وقام العداء مستحكما بين السلطة من ناحية والمثقفين باختلاف توجهاتهم من ناحية أخرى.

كان ما حدث بمثابة ثورة ثقافية عكسية، عادت كل المبادئ التى اعتنقها جيل الستينات.

ثم جاءت الثمانينات لتعيد للمجتمع توازنه. وقد مضى المجتمع يسترد توازنه على مهل. بحيث عاصر النصف الأصغر من جيل الثمانينات مناخا أكثر توازنا وتماسكا وتصالحا من نصفه الأول.

فى نهاية الثمانينيات استعادت مصر مكانتها العربية، وأصبحت قادرة على أن تجمع بين التزامات السلام ومقتضيات الهوية العربية، بين تشجيع القطاع الخاص وتفهم ضرورة أن ننتج أكثر مما نستهلك.

غير أن هذا الجيل وجد نفسه واقعا بين رحى الإرهاب من ناحية وقلق تفرضه هواجس الأمن من ناحية أخرى، فى ظل مناخ اقتصادى غير مستقر، وأجواء سياسية مضطربة.

انتهت الثمانينات عمليا بوقوع حرب تحرير الكويت. انهدم العراق على من فيه. واندفع البترول يدفع فاتورة الحرب. ووقع الخليج تحت السيطرة الفعلية لأصحاب المصالح الكبرى. ثم تزلزل العالم بانهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية.

المدهش أن مصر خرجت من الطوفان الذى ارتج له العالم العربى، وقد استردت كثيرا من عافيتها الاقتصادية واستقرارها الاجتماعى. فقد تأكد أن اتجاه الحركة كان صحيحا وأن مضمون السياسات كان صائبا.

لذا جاء جيل التسعينات أكثر ثقة وانطلاقا. فقد توفر للتوجهات الاقتصادية قوة دفع ثابتة بما اكتسبته مبادئ السياسة من رسوخ وتأكيد. وبدا وكأن المجتمع قد عرف طريقه بين الخصخصة والإصلاح، وبين دور مؤكد للدولة ووظائف مطلوبة للقطاع الخاص. لم يعد هناك بديل عن السلام، ومع ذلك بقى الدور العربى ماثلا وفعالا.

مع احترام واجب لضرورة تلافى التعميمات، ومع إدراك غياب الحدود الزمنية الفاصلة بين الأجيال، فإننى أعتقد أن فى مصر

اليوم نوعين من الأجيال أستطيع تمييز ملامحهما وتصور نوع التفاعل المنتظر بينهما.

أجيال نشأت فى ظل نظام قيمى محدد ومستقر نسبيا فتربت على مبادئ سياسية واجتماعية وثقافية راسخة.

وأجيال عايشت أجواء تحولات سياسية عاصفة وانقلابات ثقافية عميقة أفرزت سيولة اجتماعية وارتجاجا قيميا.

أجيال ثابتة وأجيال مهتزة.

المدهش والمثير فى آن واحد، أن مراحل الثبات والتحول جاءت متتابعة متتالية.

فقد جاء التحول الثورى الذى قادته ثورة يوليو ليقلب حال جيل الخمسينات.

وقد كانت الهزات التى أحدثها زلزال الثورة متوالية. انطلقت من طرد الملك حتى تحرير الوطن مرتين، مرة من الاحتلال البريطانى، ومرة من العدوان الثلاثى. اكتملت حلقات الزلزال فى نهاية الخمسينات حين حسمت الثورة أمرها وحددت طريقها.

عصفت الأحداث بجيل الخمسينات، فانشق على نفسه. البعض أيد الثورة وسار فى ركابها. والبعض حمل لها عداء لا شفاء منه.

فى الستينات استقرت الرؤية وترسخت المبادئ وبدا الطريق واضحا. فنشأ جيل الستينات مستقرا مطمئنا لاختياراته وقناعاته،

عارفا عالمه، مدركا للضرورات والمحظورات، قادرا على تمييز أصدقائه من أعدائه.

لم تنل الصدمات الكهربائية فى السبعينات من جيل الستينات وحده، إنما اجتاحت جيل السبعينات كالطوفان، فغرق من غرق ونجا من نجا.

وإن قاوم جيل الستينات بالانكفاء أحيانا والاختباء أحيانا وبالهجرة غالبا، فقد بقى جيل السبعينات مشتتا مهتزا مثخنا بجراح لم يعد لها دواء.

ثم جاء جيل الثمانينات متماسكا بقدر ما تحقق من توازن، مستمسكا بما بقى من المبادئ.

وحين نزل على العالم فى التسعينات مشهد جديد، كانت مصر تسترد بعض العافية وتنعم ببعض الهدوء.

ليس بغريب، إذا، أن جيل التسعينات مختلف كالمشهد المحيط، جرىء جرأة العولمة، عملى براجماتى كنظام القيم السائد فى عالمه.. قادر على تغيير التحالفات والأصدقاء بتغير المصالح والظروف.

يحترم القانون بقدر ما يؤثر.. ويعتقد فى المبادئ بما يساوى قيمتها فى الواقع.

إذا اعتبرنا أن الفارق الزمنى بين الابن والأب هو فى حدود ربع القرن، فإن جيل منتصف الثمانينات هو الابن الشرعى لجيل

الستينات. وبقدر مماثل فإن جيل الخمسينات هو الأب الطبيعى لجيل السبعينات.

المثير والمدهش فى آن واحد أن ظروف الأباء والأبناء قد تشابهت. ما بين زلزال الثورة فى الخمسينات، وإعصار السبعينات بصدماته الكهربائية، تماثلت ظروف النشأة. وبحكم الزمن تربى جيل السبعينات فى أحضان جيل الخمسينات. فجاء كلاهما منشقا على نفسه، حانقا على ظروف نشأته، متخلقا بأخلاق الطوفان، عدوا للثورة، منقلبا على ما اعتبرته ثوابتها الوطنية. وبمقتضى التناقض يحمل كل من الجيلين ضغينة للجيل الذى سبقه، وخصومة مع الجيل الذى تلاه.

أجيال متتابعة، يختلف كلٌ مع سابقه ويفترق عن تابعه فى عوامل التكوين، وفى المبادئ والرؤى والتوجهات. ينظر كل جيل أمامه فيرى اختلافا إلى حد التناقض، ويداخله شعور بالغربة. وينظر خلفه فيرى تغيرا إلى درجة الانقلاب، ويجتاحه شعور بالانقطاع.

هكذا ينظر جيل الكبار خلفه فلا يرى فى الصف الثانى عناصر صالحة أو واعدة. وهذا هو ما يجعل جيل الثمانينات يشعر بالقمع ويؤرجحه بين طموح يلوح فى الهجرة، وحالة انتظار داخل الوطن يقف فيها خلف جيل يحجبه عن الرؤية ويفرض عليه نوعا من

العزلة، ربما يحاول فيها تثبيط هممه وقتل طموحه. وهذا هو ما يجعل جيل السبعينات يعتقد أنه محاصر معزول بين جيل أمامه لا يراه صالحا للفرصة التى يعتقد هو أنه يستحقها، وأجيال وراءه تراه عقبة أمام انطلاقها.

كيف يمكننا أن نخرج من حالة الاصطفاف والتدافع؟

لكل جيل دور وعلى كل جيل مسئولية.

المسئولية الأكبر يتحملها اليوم جيل الستينات. فهو الجيل الذى يحتل مواقع القيادة، وهو - فيما أظن - أعظم أجيال مصر المعاصرة، بتاريخه وبما يملك من رؤية وطنية صائبة تكونت بمشقة وتدعمت بصبر.

على ذلك الجيل أولا أن يحل تناقضاته وأن يصالح نفسه ويسامحها. ثم عليه بعد ذلك، بدلا من الشكوى والنقمة، أن يمد الجسور مع جيل السبعينات وأن يدير مع عناصره المتميزة جدلا إيجابيا واسع النطاق. فى الوقت نفسه عليه أن يمد يده، من وراء جيل السبعينات، إلى أجيال الثمانينات والتسعينات ليخرجها من حالة الانتظار ويفتح أمامها سبل المشاركة وتحمل المسئولية.

ويظل جيلى مسئولا - وإن راق له أن يلقى بالمسئولية على الآخرين - فالمشاركة مسئولية واجبة عليه أن يضطلع بها، وعليه أن يتوقف عن انتظار دعوة للمشاركة لن تأتى قريبا. عليه أن

غير أن هذا الجيل وجد نفسه واقعا بين رحى الإرهاب من ناحية وقلق تفرضه هواجس الأمن من ناحية أخرى، فى ظل مناخ اقتصادى غير مستقر، وأجواء سياسية مضطربة.

انتهت الثمانينات عمليا بوقوع حرب تحرير الكويت. انهدم العراق على من فيه. واندفع البترول يدفع فاتورة الحرب. ووقع الخليج تحت السيطرة الفعلية لأصحاب المصالح الكبرى. ثم تزلزل العالم بانهيار الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية.

المدهش أن مصر خرجت من الطوفان الذى ارتج له العالم العربى، وقد استردت كثيرا من عافيتها الاقتصادية واستقرارها الاجتماعى. فقد تأكد أن اتجاه الحركة كان صحيحا وأن مضمون السياسات كان صائبا.

لذا جاء جيل التسعينات أكثر ثقة وانطلاقا. فقد توفر للتوجهات الاقتصادية قوة دفع ثابتة بما اكتسبته مبادئ السياسة من رسوخ وتأكيد. وبدا وكأن المجتمع قد عرف طريقه بين الخصخصة والإصلاح، وبين دور مؤكد للدولة ووظائف مطلوبة للقطاع الخاص. لم يعد هناك بديل عن السلام، ومع ذلك بقى الدور العربى ماثلا وفعالا.

مع احترام واجب لضرورة تلافى التعميمات، ومع إدراك غياب الحدود الزمنية الفاصلة بين الأجيال، فإننى أعتقد أن فى مصر

٣ - جيل الستينات.. متى يحل أزمته؟

سأظل أعتقد أن جيل الستينات هو أعظم أجيال مصر المعاصرة. وهو أعظمها قدرة على صياغة مستقبلها وقيادتها على طريق التقدم الحقيقى. لكننى أعتقد أيضا أن هذا الجيل الذى يقود المجتمع المصرى اليوم، لن يستطيع أن يتم مهمته دون أن يتجاوز أزمته وبغير أن يحل تناقضاته.

ولا يأتى اقتناعى بأفضلية جيل الستينات من فراغ.

هو أولا، الجيل الأول الذى استفاد من ثورة التعليم التى أطلقتها ثورة يوليو. وكانت مجانية التعليم الحقيقية هى التى فتحت الباب لأبناء الطبقات المتوسطة والفقيرة لكى يدخلوا ميدان التعليم الإلزامى والعالى، وكانت بذلك تتيح الفرصة للمجتمع لكى يستخدم قدرا أكبر من طاقاته، ويكتشف كفاءاته المتفوقة المهدرة على حافة الحياة، وتحت وطأة الطبقية الجامدة. وكان أن زحفت جحافل أبناء الفلاحين والعمال وصغار الموظفين والتجار والبسطاء على مؤسسات التعليم، فى إطار حركة اجتماعية كبرى ارتكزت على تكافؤ الفرصة وطبقت إلى حد بعيد مبدأ المساواة.

ثانيا: إن البعثات العلمية إلى الخارج شهدت طفرة هائلة، رغم كل ما يقال عن الانغلاق الذى ساد، والذى أصبحنا نتفهم أسبابه ودوافعه فى ظل المشكلات الناجمة عن الانفتاح الاقتصادى المحمل بمخاطر التوسع فى الاستهلاك والاستيراد، والانفتاح السياسى المعبأ بمخاطر التبعية، والانفتاح الثقافى المنذر بمخاطر الغزو الثقافى. ومن الاتحاد السوفيتى شرقا إلى الولايات المتحدة غربا، انتشر المبعوثون المصريون يسعون وراء المعرفة والدرجات العلمية والترقى الاجتماعى.

ثالثا: إلى جانب التعليم والبعثات الأكاديمية، فإن هذا الجيل تلقى إعدادا سياسيا وتربية وطنية لا تزال مضربا للمثل ومطلبا شبابيا ووطنيا. وعلى رغم أننا نحيا عصر العولمة فإننا لا نعدو مستهلكين ممتازين لما يريد الآخرون بيعه ويسعون إلى تسويقه. بينما نبقى الأقل إطلاعا على الإنتاج الثقافى والتطور المعرفى العالمى.

على النقيض كانت الصلات الفكرية والروابط الثقافية ممتدة عبر جسور أقامها كتاب ومفكرون ومثقفون فى الستينات مع تيارات الفكر العالمى المعاصر وصلات مع مفكرين وفلاسفة ومناضلين عالميين بحق. كانت حركة الترجمة فى أوجها وكان ضيوف القاهرة بحجم سارتر وسيمون دو بوفوار. اليوم تسلط الأضواء على كتاب بضآلة توماس فريدمان!

ليس غائبا أن الثورة حين فعلت كل هذا كانت تحمى نفسها. لقد كانت البرجوازية المتوسطة والصغيرة جنبا إلى جنب مع الفقراء وأبناؤهم هم اختيارها وانحيازها. لذا كان هدفها من وراء دعمهم وتصعيدهم سياسيا واجتماعيا هو بناء طبقة جديدة وجيل جديد يؤمن بمبادئ الثورة ويعتنق توجهاتها وبالضرورة يساندها ضد أعدائها، وما أكثرهم.

كان جيل الأربعينات من القرن العشرين هو الذى اكتشف فساد النظام القائم واستنتج حتمية الثورة، غير أن طليعته العسكرية هى التى قامت بها ونفذتها ثم أمسكت بزمام الأمور وقادت.

أما جيل الخمسينات فقد انقسم على نفسه إزاء الثورة ما بين مؤيد ومعارض. ثم قررت الثورة أن تربى أبناءها، فجاء جيل الستينات. صحيح أن الستينات كانت مرحلة الاتحاد الاشتراكى وتحالف قوى الشعب العامل، إلا أنها شهدت حيوية سياسية وتدفقا شعبيا للمشاركة فى صنع المستقبل، ولم تكن تلك ظاهرة مصرية بل كانت حالة عالمية. وهو ما ساهم فى صنع تعددية حقيقية، على الرغم من حملات الاعتقالات، ومحاولات الاستبعاد. بجانب الاتحاد الاشتراكى، نشطت التنظيمات الشيوعية واليسارية، كما لم تنشط فى تاريخ مصر. وعلى الجانب الآخر ازدهرت حركة الإخوان المسلمين قبل أن يصيبها الانقسام وتندفع على طريق

التطرف. وقد أنجبت حركتا الإخوان والماركسيين أعظم وأهم كوادرها فى الستينات.

جيل الستينات هو الجيل الذى صنعته الثورة، فأحسنت صنعه، وأعدته فأجادت إعداده.

وكادت عملية البناء تقترب من نهايتها حين انقضت على رأس هذا الجيل كارثتان محققتان، وقد نزلتا على غير انتظار. وقعت كارثة عام ١٩٦٧، فتزلزلت القناعات وحلت الشكوك محل المعتقدات، وفى ٦٧ نصب الفخ ببراعة ووقعت فيه الثورة بسذاجة، وكان جمال عبد الناصر هو المسئول. ثم مات جمال عبد الناصر.

وإذا كان بعض أبناء الجيل قادرين على تجاوز كارثة ٦٧، فإن أغلبهم غير قادر على التسامح مع الزعيم الذى مات.. لأنه مات.

بعضهم يكره فى جمال عبد الناصر أنه مات وهو مهزوم، وكلهم مهزومون. لذا انقلبوا كارهين لاعنين. كان عبد الناصر هو رمز هذا الجيل. وحين حاقت به النكسة وقف الجميع وراءه. كانوا لا يريدون له أن ينهزم، ولا أن يرحل ويتركهم فى حالة الهزيمة. لذا أعادت مصر كلها جمال عبد الناصر بعد أن أعلن رغبته فى التنحى. لكنه مات فى منتصف الطريق. وتلك خطيئة لا يغفرها له بسهولة كثيرون من أبنائه.

كان أخطر قرار اتخذه جمال عبد الناصر بعد ٦٧ هو اختيار أنور السادات نائبا للرئيس. لذا حين مات جمال عبد الناصر- فجأة-

كان أنور السادات هو الذى أصبح مسئولا. وكما كشفت نكسة ٦٧ أن جمال عبد الناصر اتخذ قرار الحرب بناء على حسابات استراتيجية وعسكرية خاطئة، فقد اكتشف أنور السادات أن رموز النظام القائم اتخذوا قرار مواجهته فى مايو ١٩٧١ اعتمادا على تصورات زائفة وتوقعات خائبة.

ثم اتخذ أنور السادات قرار العبور وحده. وبعد انتصار أكتوبر العظيم رأى السادات أن على مصر أن تمضى فى عكس الاتجاه. كان قراره ناتجا عن خبرة مباشرة فى التعامل مع الاتحاد السوفيتى، واقتناعا بأن الولايات المتحدة لن تترك مساحة واسعة لحركة النظم العربية فى علاقتها مع إسرائيل.

هكذا لم يترك السادات انتصار أكتوبر طويلا لجيل الستينات يسترد به اعتباره، إنما استثمره على الفور فى بناء السلام. وتوالت الصدمات الكهربائية.. افتتاح قناة السويس عام ١٩٧٥، الانفتاح الاقتصادى، زيارة القدس عام ١٩٧٧، كامب دافيد عام ١٩٧٨، ومعاهدة السلام عام ١٩٧٩.

وكان مضى السادات فى الاتجاه المعاكس صراعا مع كل المؤسسات القائمة، وانقلابا على كل المفاهيم السائدة. من ناحية أخرى أطلق السادات الجماعات المتطرفة، لتقتص من خصومها من أبناء الثورة، وتساعد السادات على تفكيك قواعدهم.

ووجد جيل الستينات نفسه فى مأزق.

كان عبد الناصر هو الزعيم، وقد مات مهزوما ومحاصرا. وأصبح أنور السادات خصما، لكنه هو صاحب انتصار أكتوبر. ثم إنه لم يترك الانتصار لأبناء الثورة، بل أخذه لنفسه وانتقل يبنى عليه صلحا مع العدو.

حين اغتيل السادات تصالح المجتمع المصرى، وأكد الرئيس مبارك بالقول والفعل أن الوطن ملك لأبنائه جميعا. غير أن صاعقة جديدة انقضت على الجميع من حيث لا يحتسب. تقوض الاتحاد السوفيتى وانهدمت الكتلة الشرقية. وحين حدث الزلزال كانت مصر فى معسكر المنتصرين. وكان الفضل للسادات. وبعد حرب الخليج تأكد أن السلام هو الاختيار الوحيد فى ظل هيمنة أمريكية عالمية. ولم يعد هناك بديل عن اقتصاد السوق، وذهب نظام الحزب الواحد إلى متحف التاريخ السياسى. وكان السادات هو صاحب الرؤية، وأصبح كمن تلقى نبوءة. وكان وصف الزعيم الملهم لم يكن مبالغة.

صحيح أن الانفتاح كان استهلاكيا، وأن التخلص من القطاع العام كان بالهدم والفوضى وليس فى إطار سياسة منضبطة، وأن ديموقراطية السادات كانت ذات أنياب، وأن إطلاق العنان للتطرف باسم الدين كان ذا عواقب سياسية واجتماعية وخيمة دفع السادات نفسه ثمنها، إلا أن اتجاه الحركة كان سليما. وزاد ذلك كله من رصيد الأزمة لدى الجيل الذى ناصب السادات العداء. وليست المسألة فى العداء مع السادات وحده.

لقد تلقى جيل الستينات إعدادا مثاليا، لكى يتولى المسئولية فى ظل الثورة. وحين جاء عليه الدور ليضطلع بالقيادة، كان المجتمع المصرى قد تبدل، وكان العالم كله قد تغير. وبات عليه أن يقود مجتمعا مخالفا فى عالم مختلف.

اندثرت الاشتراكية التى كانت مرشحة طريقا للتنمية. وفى الشرق الأوسط لم يعد هناك سوى قوة وحيدة مسيطرة هى الولايات المتحدة، وهى التى انتهى إلى أنها الامبريالية القائمة على استغلال الشعوب النامية. وإسرائيل التى كان يستعد لقتالها وإزالتها من الوجود، أصبح السلام معها هو الخيار الوحيد. أما داخل البيت فقد أصاب التغيير الأجيال من بعد جيل الستينات، بحيث أصبح غريبا عليها بمبادئه وقناعاته ومثالياته وثقافته.

امتلأ الجيل العظيم بشروخ عظيمة. وطفت على السطح تحيزات وأفكار مناقضة للمبادئ والقناعات القديمة. بيد أن ما فى القلب فى القلب.

ولم يعد غريبا أن نقرأ لأعدى أعداء عبد الناصر وأكثر الناس ترحما على ليبرالية النظام الملكى رثاء حارا للاتحاد السوفيتى، بعد زيارة صيف لموسكو. ولا عجب أن يرتفع كل هذا التأييد لمظاهرات سياتل ٩٩ من مفكرين بذلوا جهدا شاقا لإقناعنا بأن العولمة لا تستدعى كل هذا الخوف والقلق.

خطورة الأزمة وأهمية التناقضات ترجع إلى حجم وثقل جيل الستينات وإلى محورية الدور الذى يضطلع به: فهو - فيما أظن - الجيل الأكثر تأثيرا فى المجتمع المصرى المعاصر. فمن ناحية يحتل أبناؤه مواقع القيادة فى مختلف المجالات، وهم - من ناحية أخرى بحكم التكوين - الأعمق ثقافة والأصوب رؤية والأقدر على إنتاج الفكر ونشر المبادئ وإعلان الآراء.

لذا استطاع هذا الجيل باقتدار تصدير أزمته إلى الأجيال التالية والتابعة، بحيث انعكست أزمته بدرجات متفاوتة على مختلف شرائح المجتمع. وإن لم يستطع حل رموز هذه التناقضات وتفكيك عناصر تلك المشكلات، فإنه سيخلف وراءه مأزقا تاريخيا، قد يمضى وقت طويل قبل أن نصبح قادرين على العبور فوقه أو الالتفاف من حوله.

٤ - نريد أن نكون

لم أعد أستطيع أن أخفى قلقى وأن أدارى حيرتى وانزعاجى حين أنظر حولى فلا أجد من يمثل جيلى ويعبر عنه.

وجيلى هو آخر الأجيال التى عاصرت الحرب فأدركت الوطنية وعرفت من يكون العدو ومن يكون الصديق.

وهو الجيل الذى شهد التحول الكبير فى تاريخ المجتمع المصرى المعاصر، من مجتمع الحرب ضد الاستعمار وأذنابه إلى مجتمع السلام والتنمية، ومن الدولة المركزية بسلطتها الثقيلة ومسئولياتها الكبرى إلى مجتمع اقتصاد السوق بتحرره وفرديته وقيمه المادية الاستهلاكية.

هو الجيل الذى تخطى بعضه ثلاثينات العمر بينما يخطو بعضه حثيثا نحو الأربعين.

هكذا دون أن يظهر من أبنائه كاتب أو مفكر أو أديب يمكنه أن يستوعب قضايا هذا الجيل أو يستطيع أن يمسك بعناصر شخصيته ويعبر عن روحه ويصيغ مبادئه وطموحاته.

تكاد جذوة الحماس أن تخبو دون أن نرى من يمثل جيلنا فى مجالات الفكر والأدب والسياسة بحيث يعيد الجيل كله من خلالهم

تعريف الوطنية وصياغة رؤية للعالم والوطن ويختار بهم طريق المستقبل.

منذ بداية القرن العشرين كان لكل جيل طليعته، فهل نحن جيل بلا طليعة؟

هل أحجم بلدنا عن إنجاب المفكرين والساسة؟

أم أن هناك خللا ما يمنع نخبة هذا الجيل من الوصول إلى منابر الرأى وقيادات الأحزاب لتأخذ مكانها داخل المؤسسات التشريعية والتنفيذية وتقوم بدورها فى صناعة المستقبل الذى يخصها قبل غيرها.

هل أصاب العطب منصات إطلاق النجوم فى بلادى أم أن السماء قد تشبعت بالنجوم ولم يعد هناك مكان لمزيد؟

يظل جيلى موصوما بقلة الخبرة وضعف الرؤية، رغم أن شعوره بالابتعاد عن المسئولية هو السبب الأول فى انصرافه عن الاستعداد لها، ورغم أن المسئولية تقترب منه أكثر مما يقترب هو منها.

ويظل جيلى مدانا بالأنانية وانعدام الولاء مع أن ابتعاده عن المشاركة فى الشأن العام هو دافعه فى الانصراف عما لا يخصه إلى ما يفيده.

لا أحد يطالب بأن يضطلع شباب قليل التجربة ضعيف الخبرة- وإن لم يكن قليل الكفاءة - بمسئوليات جسيمة حتى وإن كانت

تتعلق بمستقبله، إلا أن أحدا لا يقبل استبعادا كاملا للشباب من عملية اتخاذ القرار الذى سيتحدد فى ضوئه مصير الوطن ومستقبله.

فأولا: ليس هناك ضمان لمستقبل الوطن أهم من وجود الشباب على مقربة من دوائر صناعة القرار. هذا وحده يدعم الاستقرار.

وثانيا: إن وجود الشباب بالقرب من دوائر صناعة القرار يمكنهم من الاطلاع على دوافع القرار وأسبابه وأسلوب اتخاذه بما يعفيهم من الوقوع فريسة سهلة للمغرضين والمتطرفين وبما يعطيهم خبرة واقعية ضمن عملية إعداد نحن فى أمس الحاجة لها.

ثالثا: ليس من رأى كمن سمع. فأبناء الجيل الواحد الذين ساهموا فى اتخاذ القرار أقدر على إقناع أقرانهم بما يفيد البلد فعلا بدلا من حملات دعائية لم تعد تجد آذانا أو تلقى ترحيبا.

ليس هناك جديد فى الحديث عن إعداد الشباب وعن تحفيزهم على المشاركة بفاعلية فى الحياة العامة.. وليس هناك جديد فى الحديث عن بدائل عديدة للإطار السياسى الذى يتيح للشباب مشاركة فعالة.

فقد طرحت أفكار عديدة، وتراوحت الأفكار بين أشد الخيارات تعبوية وتنظيما وأكثر البدائل ليبرالية وتحررا.

ومع ذلك ظل الشباب بعيدا عن مقاعد القيادة ومواقع التأثير والتوجيه فى مختلف الأحزاب التى ظلت بدورها غير مشغولة بتواصل الأجيال وبالتالى غير عابئة بالمستقبل.

وقد كان هذا سببا مباشرا فى انهيار بعض الأحزاب بعد غياب قادتها وسببا فى غياب الأحزاب نفسها عن الشارع الذى يمثل فيه الشباب العنصر الغالب بقدر ما يمثل عنصر الإقدام والحماس والقدرة على الحركة والفعل.

واكتفت الأحزاب بالحديث عن الشباب. واكتفى الشباب بالحديث عن الحياة السياسية.

إلا أن ابتعاد الشباب عن الحياة السياسية كان فى جانب كبير منه خبرة تناقلتها أجيال اقتحمت عالم السياسة والعمل العام طوال القرن العشرين وكانت محصلة خبراتها هى محاولتها الصادقة المثمرة إبعاد الأبناء عن كل ما يتعلق بالسياسة والعمل العام.

أما غياب الإبداع الفكرى والأدبى الخاص بجيلى فيتحمل جيلى أولا مسئوليته. فنحن - خلافا لأجيال سابقة - مهمومون بالعائد المباشر والسريع لكل عمل نتورط فى القيام به.

وهذه أيضا خبرة اكتسبها الجيل عبر أجيال سبقته، أجيال تفرغت للعطاء دون مقابل، بينما تفرغ آخرون للأخذ دون عطاء.

حتى بدا فى الحساب الأخير أنها تعرضت للسرقة وأن حياتها قد ذهبت هباء، فقد اختفت فجأة كثير من القضايا التى دافع عنها وضحى من أجلها الآباء وتراجعت قضايا أخرى. بدءا من حقوق المرأة التى طالب بها قاسم أمين إلى مجانية التعليم التى نادى بها طه حسين إلى حرية الفكر التى ارتادها عميد الأدب العربى ودفع ثمنها

كما جاهد فى سبيلها محمد عبدهُ وأحمد لطفى السيد وسلامة موسى مرورا برقى الفكر وعمقه وأصالته التى كرس من أجلها العقاد حياته وأهدرها تلاميذه حتى العطاء الفريد لنجيب محفوظ الذى يوشك أن يختزل إلى كلمة واحدة «نوبل»، وتمرد يوسف إدريس الذى يكاد أن يصبح نسيا منسيا.

على أية حال يبقى أن ما أصاب كفاح الرواد فى دروب الفكر لا يمكن أن يقاس بما حدث لتضحياتهم فى غابة السياسة وبحور الوطنية والقومية.

يكاد المرء يظن أنهم كانوا يعبثون. غير أن التجارب لا تمضى دون عواقب.

لم يعد أحد قادرا على العطاء دون أخذ. ليس لدى أجيال اليوم استعداد لتقديم التضحية دون نتائج مرئية.

تغيرت شروط العقد الاجتماعى والسياسى والوطنى. وهذه خبرة انتقلت عبر الأجيال.

من ناحية أخرى هناك ذلك التغير الذى أصاب المجتمع والعالم فأصبحت قيمة الشىء بقدر ما هو قابل للبيع طبقا لقيم حضارة السوق.

فإذا كانت أغانى الكاسيت الهابطة ومسلسلات التليفزيون غير المفهومة وصحافة الإثارة تحقق الشهرة وتمنح الثراء والسطوة فليتنافس المتنافسون من أجلها. ولا عجب فى انتشار برامج المواهب

الغنائية والتمثيلية وزيادة الأموال المخصصة لدعم الصحف الصفراء بالإضافة إلى مسارعة بعض القوى إلى مساندتها. ولا عجب فى أن أهم وأغزر ما حققه جيلى هو إخراج أغانى الفيديو كليب وإنتاج الصحف الصفراء. إذ لم يعد هناك داع لإهدار الوقت والجهد فيما لا يقرؤه أحد ولا يشتريه أحد.

ويشارك فى غياب جيلى عن ساحة الفكر التحول الاجتماعى الذى سحب المكانة الاجتماعية والعائد المادى من أصحاب الفكر ليمنحه دون تحفظ لأصحاب الثروة والسلطة.

لقد كثر الحديث عن الاستعداد للقرن الحادى والعشرين. وليس هناك استعداد أفضل من إعداد الأجيال التى ستجد نفسها فى مواجهته بتحدياته المتشابكة غير المسبوقة.

هل يفتقد جيلى من يصلحون لمواقع القيادة؟

أيا كانت الإجابة فإن هذه الأجيال هى وليدة الأجيال التى سبقتها. هم صنيعة هذا المجتمع بمؤسساته التعليمية والإعلامية والثقافية والسياسية. ولو لم يكن لدينا من يصلحون للقيادة لأوجدناهم إيجادا ولصنعناهم قبل أن يصنعهم لنا الآخرون.

حين يطرح علينا السؤال: نكون أو لا نكون؟

فليس هناك سوى إجابة واحدة ممكنة: نريد أن نكون.

٥ - جيل جديد شجاع

كما كان عام ٢٠٠١ علامة فارقة فى التاريخ المعاصر فإن عام ٢٠٠٢ والأعوام التالية ستكون هى الأخرى أعواما فاصلة. فكل حدث هائل - أو حادثة كبرى - تعقبه مراجعات عميقة وترتيبات واسعة تستهدف بعد دفع الخطر، إزالة ما انهدم ولملمة ما انفرط والبناء على ما خلا من الأرض.

والأهم تحليل أسباب ما وقع تحديدا لجذوره التاريخية ومقوماته الجغرافية ومكوناته الثقافية.. ثم العمل على صناعة المستقبل استنادا إلى ما تكشف من دراسة التاريخ وانكشف من مواقع الجغرافيا وبدا من كوامن الثقافة. لسنوات عديدة قادمة سيظل الزلزال الهائل الذى اهتزت له نيويورك وواشنطن فى الحادى عشر من سبتمبر من عام ٢٠٠١ موضوعا للبحث وللدراسة ومدخلا لترتيبات استراتيجية عالمية وإقليمية ومحلية ودافعا لإعادة رسم السياسات وتركيب العلاقات. نحن إزاء عالم يعاد بناؤه ورسم خرائطه.

ونحن فى مصر والعالم العربى والإسلامى- شئنا أم أبينا - فى مركز التحليل والنقد وبؤرة من بؤر إعادة النظر. ومع ذلك فإننا مازلنا نتلكأ على أطراف المبادرة بالتفكير الصريح وعلى تخوم المشاركة بفاعلية.. رغم أن واجبنا يقتضى النظر فى أحوال حاضر

نحن طرف أصيل فيه والتخطيط لمستقبل هو مستقبلنا قبل أن يكون مستقبل غيرنا.

وبينما يفكر الآخرون كثيرا بصوت عال أحيانا وبلا صوت أحيانا أخرى، ويعملون بجدية ويتحركون بسرعة، لا تزال أغلب المجتمعات العربية واقعة تحت تأثير فكر تقليدى لا يدرك تماما فداحة ما حدث بالأمس ولا اتساع ما يحدث اليوم ولا عمق الحدث وامتداده فى المستقبل.

يحاول الفكر العربى والإسلامى التقليدى التقليل من أهمية ما يجرى بتأكيد أن «كله تمام»، وأن ما حدث بسيط ومن الممكن تداركه بسهولة.. فالعالم العربى يبعد آلاف الأميال عن مواقع الجريمة وعن جبهات القتال.. والجماعات التى خططت ونفذت منبوذة ومطاردة ونحن على استعداد كامل لتلقى كل دعم ممكن للقضاء عليها.. والإسلام برىء من دماء الأبرياء وقد أدان وتعاطف بنص تصريحات نشرتها الصحف وأذاعتها الشاشات.. هكذا نظن أننا قد عملنا ما علينا وزيادة وأنه آن الأوان أن ننسى الأمر برمته فلدينا شواغل أخرى.

لم تكن وقائع الحادى عشر من سبتمبر مجرد أعمال إرهابية، تغلق ملفاتها بمجرد إلقاء القبض على الجناة وإزاحة النظام الذى كان يأويهم.. إنما هى علامة مخاض عالم جديد ستشهد الأعوام القليلة القادمة نضجه واستواءه.

فقد عاش العالم وقوته العظمى منذ السقوط العظيم لسور برلين يملؤه الاعتقاد بأننا نحيا فى ظل «نظام عالمى جديد» وفى صباح مشرق وتحت سماء كاشفة أثبت السقوط المدوى لمركز التجارة العالمى أننا نحيا فى ظل «اللانظام العالمى الجديد».

وعلى رغم كل ما بذلته القوى العظمى من جهود – فيما بين سقوط سور برلين وسقوط مركز التجارة العالمى – لإعادة بناء العالم وبسط سيطرتها عليه، ظهر أن التغيرات العميقة التى طرأت على مكونات العالم الجغرافية والتاريخية صاحبها بروز تناقضات جديدة وصراعات جديدة، أفلتت من إدراك المفكرين والمثقفين وتسللت من رقابة أجهزة الأمن والمخابرات وخرجت عن سيناريوهات الصراع بالحرب والسياسة. وقد بلغت التناقضات درجة فاقت التوقعات وعبرت عن نفسها بأنواع غير مسبوقة من العنف.

إن زوال الجغرافيا فى العالم المفتوح الذى صنعته الكوكبية قد أفسح الطريق لصدامات التاريخ كى تحتل مقدمة المسرح العالمى. وبعد أن ظن البعض أننا أمام «نهاية التاريخ»، أصبح العالم وكأنه إزاء صراعات «بداية التاريخ». لذا سيشهد المستقبل القريب إعادة نظر فى التاريخ، بالتحليل وإعادة القراءة والكتابة.. وتاريخنا بموروثاته ومستجداته، وبمكوناته القومية والعقائدية سيكون – فى الأغلب – هو مركز إعادة الفحص والتفكيك والتركيب.

من ناحية أخرى فإن جغرافيا العالم السياسية ستشهد ترتيبات عالمية وإقليمية جديدة، وفى الجغرافيا كما فى التاريخ تبدو مصر بموقعها الهائل ودورها المحورى كما يبدو العالم العربى بالموقع والمياه والخلجان والشطآن وبحقول البترول الظاهرة فوق الأرض وطبقات البترول الغاطسة تحت السطح فى بؤرة اهتمام القوى العظمى وعلى رأس الأولويات الجيوبوليتيكية.

وفى عالم مكشوف متداخل، تذاع أحداثه وحوادثه على الهواء مباشرة.. عالم منقول عبر الإنترنت، لم يعد هناك مكان تختبىء فيه الأنظمة السياسية الجامدة.. ولم يعد ممكنا للأبنية الاجتماعية المتخلفة أن تتوارى.. ولم تعد القيم الثقافية البالية قادرة على التخفى وراء الأقنعة. من هنا ومنذ الآن لن يكون هناك مبرر مقبول للتخلف.

وفى هذا فنحن مطالبون بأن نفكر بأنفسنا ولأنفسنا.. قبل أن يفكر لنا الآخرون. على الأقل قبل أن يشرع الآخرون بالفعل.. وأول مهام العقل العربى أن يمتلك شجاعة نقد الذات. ندرك جميعا أن دوافع المراجعة قائمة منذ زمن. ومع ذلك فإننا لا ندخر جهدا فى الدفاع والتبرير إزاء كل نقد يوجهه لنا الآخرون. نعطى أنفسنا كل الحق فى مهاجمة الأصدقاء والأعداء بينما يصيبنا الإحباط وننـدفع إلى الإنكار حين نصبح موضوعا للنقد. لقد أصبح النظر إلى

أنفسنا ضرورة.. صحيح أننا نواجه ضغوطا تدفع فى اتجاه المراجعة والتغيير، غير أن مصالحنا الوطنية تقتضى ألا نؤجل تغييرا وتطورا كنا نطالب به قبل أن يطالبنا به أحد. الأخطر أن مستقبلنا يتعلق الآن بالطريقة التى سنستجيب بها لدواعى التطور.

لقد كشفت ردود الأفعال التى تلت جريمة الحادى عشر من سبتمبر عمق الأزمة التى يعانيها جيل عربى كامل.. لسنوات طويلة ظل «إغلاق العقل العربى» الشغل الشاغل للعديد من القوى التى تموج بها المنطقة.. وهى قوى مختلفة فى المبادئ والتوجهات ومعادية لبعضها فى أغلب الأحيان، بعضها فى الداخل وبعضها على الحدود.. إلا أن محصلة عملها شقت مجرى واحدا فصل بقوة بين جيل جديد من العرب وبين عالم جديد يتشكل من حوله.

المفارقة أن خمسينات وستينات القرن الماضى - عصر الانغلاق- شهدت انفتاحا ثقافيا وتفاعلا سياسيا إيجابيا بين العالم العربى وبين العالم. كانت الصلات بين المؤسسات العلمية المصرية والعربية ونظيراتها العالمية أكثر إيجابية وأعمق إدراكا بمقاصدها، وكان المثقفون العرب أكثر فاعلية فى صناعة عالمهم.

كان تواصل المثقفين المصريين والعرب مع بعضهم وتفاعلهم مع المثقفين الأفارقة والآسيويين المنخرطين فى حركات التحرر الوطنى متأججا.. فامتدت الجسور بين الشعوب العربية ونظيراتها

فى العالم الثالث. وعلى رغم صراعات العرب فإن «الداخل» العربى كان أكثر انفتاحا وترابطا.

أما اليوم وفى عصر العولمة فإن قطاعا حرجا من الشباب العربى يبدو واقعا تحت تأثير تيار يواجه تحديات المستقبل بالارتداد إلى الماضى، ويرى فى تدمير عناصر الحضارة القائمة انتصارا لمجتمع الكهوف وحياة القبائل والقوافل.. ويرى الدنيا صراعا عرقيا مذهبيا.

فى داخل الكهوف ووراء أستار الخيام يحتل الشيخ أو الأمير مكانة أهم من مكانة الحقيقة، وتصبح المعلومات حكرا على قلة ملهمة تحتكر صناعة القرار بما تملك من رؤى ونظريات غير قابلة للمناقشة والنقد بحكم خروجها من نصوص فوق التفكير والمراجعة.. وهى بعد ذلك تقود القبيلة دون مساءلة أو حساب وبما تملك من المال والسلاح.. علامة الخطر أن يلقى هذا النموذج إعجابا ويلقى تعاطفا.

مستقبل عالمنا العربى يتوقف على ظهور جيل جديد شجاع.. يدرك القيمة الحقيقية لوطنه.. جيل يعيد فى جرأة قراءة التاريخ العربى والإسلامى كله ويعيد اكتشاف المكانة الجغرافية والسياسية للعالم العربى.. جيل يعيد للإيمان مكانه المقدس.. بعيدا عن الخلط بين ثوابت العقائد الدينية وتقلبات العقائد السياسية.. جيل لديه القدرة على استرداد صحيح الإسلام بعيدا عن النزع

المحتدم بين قوى العولمة من جانب وقوى الماضى من جانب آخر. جيل يعيد بناء علاقته بالعالم وبالمستقبل، بادراك حقيقة التغيرات التى تجرى من حوله.. عارفا بالفارق بين الاستراتيجية والثقافة.. وبين السياسة والقانون.. مؤمنا بالعلم طريقة للحياة وأساسا للفكر. جيل ينفتح على العالم بالتجاوب والتفاعل.. يتحاور ويتفاوض واثقا من موقعه ومن علمه ومن قدرته.. تاركا خلفه «فكر العداء» الذى يدعو له «شيوخ تورا بورا» ومتجنبا «نظريات الصدام» التى يروج لها «أساتذة هارفارد».

لكن نشأة هذا الجيل لن تأتى صدفة ولن تتحقق بالتمنيات. لقد تكشفت أمامنا البدائل وأسفرت المخاطر عن وجهها، وهى مخاطر تتهددنا قبل غيرنا. فالغرب سيتكفل بما يضمن له أمن وسلامة مسيرته، وسيعمل على إصلاح ما يرى أنه يخصه.. وكذلك يفعل أصدقاؤنا فى الصين والهند وروسيا واليابان وسيبقى علينا أن نواجه قصورنا وتناقضاتنا إذا أردنا أن نضع بأنفسنا «أجندة» مستقبلنا.

أؤمن بأن أمامنا فرصة تاريخية أخرى للحاق بالعالم.. وهى لن تنتظرنا طويلا، فالفرص كالإمبراطوريات تأتى وتذهب.. أو هى كالنوافذ تنفتح قليلا وتظل مغلقة أغلب الوقت.